مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 09 العدد 01 السنة 2008 ص ص 70-77

لمحة حول مدينة الجزائر في العهد العثماني

أ.ة/ نجوى طوبال
جامعة الجزائر

نبذة تاريخية

برزت مدينة الجزائر في العهد العثماني، متميزة بموقعها الاستراتيجي الحصين الذي استعصى مرارا وتكرارا على الدول الأوروبية المعتدية، بعدما كانت في الماضي مكانا مجهولا مغمورا مهملا ولوقت طويل[1]، لم تحظ بالاهتمام الكافي بالرغم من موقعها المتميز، على ضفاف البحر الأبيض المتوسط[2]، والملفت للأنظار بإحاطته بمجموعة من الجزر، والتي استمدت منها المدينة تسميتها بـ"الجزائر"[3]، فقد ظلّ موقع المدينة عبارة عن آثار وأطلال مهجورة لما يقارب مائتين وخمسين عاما، بعدما طاله التخريب إثر هجومات الوندال، فكل ما كان يُشاهد في ذلك الموقع أوائل القرن التاسع الميلادي هو قطعان ماعز قبيلة الثعالبة التي كانت ترعى هناك، غير بعيد عن مضارب خيام القبيلة التي انتشرت بأعالي منطقة بوزريعة.[4]

أما بداية الانبعاث الفعلي للمدينة، فقد فرضه التنافس على السلطة في بلاد المغرب الإسلامي، ويُعزى الفضل في ذلك إلى بلكين بن

مناد الصنهاجي[5] خلال القرن العاشر الهجري، عندما عمل على تقوية وتوسيع ثلاث مدن، كانت مدينة الجزائر على رأسها، إضافة إلى مدينية مليانة والمدية، وهي المدن التي شكلت مثلثا يهدف لضمان مراقبة المواصلات وطرق التجارة بين الساحل والتل ومنطقة السهوب. ومن هنا بدأت مدينة الجزائر تحصل على أهميتها الأولى. وما زاد من تلك الأهمية، تفاقم الخلاف بين الحكام الفاطميين وخلفاء قرطبة حول زعامة العالم الإسلامي في القسم الغربي[6].

وظلت مدينة الجزائر تابعة للزيانيين مرة وللحفصيين أخرى، إلى أن استقلت بأمرها أواخر القرن التاسع الميلادي، وعادت أشبه ما تكون بجمهورية ارستقراطية يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة. وكان العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن الثعالبي من أعيانها.[7]

وقد جلب المناخ المعتدل لناحية الجزائر، الواقعة قبالة البحر الأبيض المتوسط الوافدين من جهات مختلفة، فلم ينته القرن الحادي عشر ميلادي حتى غدت الجزائر مدينة كبيرة، كما شهد بذلك المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة ومنهم البكري والإدريسي إذ وصفها بكثافة السكان وازدهار التجارة، وهو الوصف الذي لا ينطبق على القرن الثاني عشر، الذي شهد عدة حروب أثرت في هذا التطور الوليد.[8]

فقد دخلت مدينة الجزائر تحت سلطة المرابطين ثم الموحدين، وبعدهما لسلطان بجاية ثم مملكتي تلمسان وتونس، وانتزعت بعد ذلك نوعا من الاستقلال الذاتي تحت مشيخة الثعالبة،[9] قبل أن تنتهي إلى أيدي الأسبان[10].

فالأوضاع المتردية والفوضى السياسية العارمة في كامل المنطقة، كانت عاملا مشجعا للأطماع الصليبية المتنامية حول الشمال الإفريقي، خصوصا بعد سقوط غرناطة في الثاني جانفي من العام 1492م، فكانت أول نقطة احتلها الأسبان مدينة مليلية عام 1497م، بعدها احتلوا المرسى الكبير بعد حصار دام خمسين يوما، ثم انطلقوا إلى وهران واحتلوها في العام 1509م، وبعدها وجهوا أنظارهم إلى بجاية، التي احتلوها سنة 1510م، وبقدر استماتة أهلها في الدفاع عنها، كان ردّ الأسبان وحشيا حيث ارتكبوا أفظع المجازر وعاث الجيش الاسباني فسادا في المدينة[11].

ثم حاصرت القوات الاسبانية مدينة الجزائر، وأرغمت شيخها سليم التومي، على قبول شروطها، وقد انتقل بنفسه، يصاحبه وفد من الأشراف إلى اسبانيا لآداء يمين الولاء والطاعة أمام الملك فرديناند، ثم استولى الإسبان عل جزيرة "البنيون" عند مدخل المدينة وبنو فيها حصنًا، أقامت فيه حامية عسكرية،مهمتها مراقبة مدى احترام الشروط المفروضة على الجزائريين، ومراقبة تحركات المراكب الجزائرية حتى أضحت مدينة الجزائر وسكنها تحت التهديد المستمر.[12]

ففي تلك الأثناء ذاع صيت الإخوة بربروس[13] في الحوض الغربي للمتوسط في إطار مساعدة البحارة العثمانيين لمسلمي الأندلس عقب سقوط غرناطة[14]، فاستنجد بهم في البداية أهالي بجاية لإنقاذهم من يد الاسبان فاستجابوا لهم، ورغم المحاولة إلا أنهم فشلوا، فانسحبوا مؤقتا، على أمل معاودة الكرة بعد القيام

بالتحضيرات والاحتياطات اللازمة للأمر.لكنهم نجحوا بعدها في الاستقرار بجيجل، التي كانت يومئذ مدينة صغيرة وقاعدة تجارية كان يستغلها التجار الجنويون منذ سنة 1260م، وبعد معركة عنيفة تمكنوا من اقتحام المدينة في حدود العام 1513م.[15]

وقد عبّر خير الدين بربروس، عن أصداء ذلك الانتصار قائلا: "عندما كنت مع أخي (يقصد عروج) في مدينة جيجل، وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت مركز البلاد.[16] كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان، ويرجون تدخلنا لإنقاذهم، فخرج أخي في خمسمائة بحار متجها إلى مدينة الجزائر بعد أن خلّفني في جيجل..."[17]

وكانت هذه بداية مرحلة وصفحة جديدة في تاريخ البلاد عامة، وتاريخ المدينة خاصة، بعدما توسع حكم خيرا الدين، ليشمل مدن: دلس وبجاية وشرشال وتنس، لتصبح مدينة الجزائر عاصمة جديدة لدولة جديدة في إقليم المغرب الأوسط، بعدما تحولت من موقع مهجور إلى عاصمة سياسية وإدارية **"دار السلطان"** [18] بعد انضوائها تحت لواء الإمبراطورية العثمانية القوية –حينها-، وقيام نواة حكم مركزي قوي، يهدف إلى القضاء على الصراعات الأهلية التي كانت سائدة، وإرساء دعائم وحدة سياسية وإدارية في إطار إقليم وطني محدد، وضمن حدود واضحة المعالم. [19] والصورة التالية توضح الشكل الذي كانت عليه مدينة الجزائر، نهايات القرن السادس عشر ميلادي:

صورة رقم 1: مدينة الجزائر سنة 1563[20][2]

ولعل أهم ما تبرزه الصورة بوضوح، هو شكل المدينة الهندسي الشبيه بمثلث متساوي الأضلاع قاعدته خط الشاطئ، وقمته تتوافق مع موقع القصبة، وهو الشكل الذي ميز مدينة الجزائر لأكثر من ثلاثة قرون من الحكم العثماني، فقد ظلّ نفسه لم تطرأ عليه تغيرات كبيرة، حتى منتصف القرن التاسع عشر ميلادي. والحقيقة أن هذا الشكل هو نتاج عدة عوامل، منها الطبيعية والأخرى بشرية.

ومجمل القول، أن مدينة الجزائر شكلت عاصمة البلاد خلال العهد العثماني، لما لها من خصائص جغرافية وتضاريسية وبشرية، وقد جعلتها هذه الميزات والخصائص من أهم المدن التي كانت في مواجهة الحملات العدوانية على الدولة الجزائرية، والتي كان آخرها العدوان الفرنسي الذي تمكن من إسقاطها ليتوالى بعدها سقوط باقي مناطق البلاد.

الهوامش:

[1]- إذ لم تحظ بما يكفي من اهتمام الدول المتعاقبة على احتلال المنطقة من وندال وبيزنطيين وروومان وقد عرفت
مدينة الجزائر في القديم ب إيكوسيوم ICOSIUM) وهي كلمة لاتينية مركبة من شقين(I) وهو اختزال لاسم (ISLA) أي الجزيرة، أما الشق الثاني (KOSIM) فيعني النوارس، وهكذا تركب الاسم (ICOSIUM) أي "جزيرة النوارس" أنظر:
- عبد الله، حمادي،**"جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الأسبان"**، مجلة المصادر، عدد 6، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2002، ص 255-256.

[2]- يكتسب البحر الأبيض المتوسط أهميته، من كونه طريقا عالميا للتجارة والعبور الدوليين، بين أجزاء العالم القديم والحديث، وكان مجال صراع تنافست فيه دول وقوى سياسية مختلفة.

[3] ذكر عبد الرحمن الجيلالي، بأن وجه تسمية هذه المدينة بمدينة "الجزر" أو "الجزائر"، لما امتازت به بين المدن المجاورة لها من ظهور مجموعة من الصخور المنبسطة الشبيهة بالجزر الصغيرة على سطح البحر، كانت منتشرة بالقرب من هذه المدينة، وكان عدد هذه الصخور كثيرا، ولا يظهر على وجه الماء منها سوى أربعة وهي أضخمها. أنظر:
- عبد الرحمن، الجيلالي، **تاريخ المدن الثلاث الجزائر، المدية، مليانة**، ط2، منشورات دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 10-11.

[4]- انتقلت قبيلة الثعالبة من السهل المتيجي إلى مدينة الجزائر وكونت دويلة تمتد من دلس شرقا إلى مدينة شرشال غربا مركزها مدينة الجزائر.

[5]- أثناء الفتوح الإسلامية دُمرت مدينة الجزائر، وهجرها أهلها إلى أن جدد بناءها بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بأمر من والده وكان ذلك حوالي سنة 339هـ/950م. أنظر:
- S.TALEB, **« Djazair Banumazghana, de la fondation par Bologhine au XVIème siècle », In:** Acte du colloque international-Alger lumière sur la ville, V1, Pub. L'EPAU, Alger, 2002, p 42.

[6]- جون، ب.وولف، **الجزائر وأوربا**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005ص15.

[7] الجيلالي، المرجع السابق، ص 215.

[8]- إن بلكين في تجديده وتوسيعه لجزائر بني مزغنة قد اختار موضعا تتوفر به مواد البناء (حجر وصخور أنقاذ المدينة الرومانية)، إضافة لمياه الشرب، ويكون قريبا من البحر وعلى ربوة مشمسة يمكن الإشراف منها على مساحة واسعة من البر والبحر، أنظر:

- عبد القادر حليمي،"**أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر**"،مجلة الأصالة، عدد 6، جانفي، 1972.

[9]- أُعتبرت مدينة الجزائر خلال القرن الرابع عشر ميلادي من بين أهم أسواق النخاسة، وقد استفادت من ذلك قبيلة الثعالبة، ومدينة الجزائر من هذه التجارة حينا من الدهر، وتكونت بها طبقة من الأثرياء استأثرت بمقاليد الحكم . وظلت الجزائر إلى حين إلحاقها بالدولة العثمانية أشبه بجمهورية بلدية صغيرة، يقوم عليها جماعة من أعيان المدينة تحت حماية قبيلة الثعالبة: انظر: - نفسه، ص 99-100، وأنظر أيضا:

- Federico Crest, « **Notes sur le développement urbain d'Alger des origines à la période turque** », In : contributions a L'Histoire d'Alger, Ed. Centro Analsi SocialeProgtetti, Rome, 1993, pp 12-20.

[10]– الميلي، المرجع السابق، ص 121.

[11] - عائشة غطاس، "**ظهور الدولة الجزائرية الحديثة**"، في: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 11-17.

[12]- محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر1985، ص 32-33.

[13]- هم أبناء يعقوب آغا، أحد فرسان السباهية الذين استقروا في جزيرة مديلي اليونانية، حيث تزوج وأنجب أربعة أبناء هم على التوالي إسحاق وعروج وخضر والياس، كانوا مولعين بركوب البحر واشتهروا بإنقاذ الأندلسيين بعد سقوط الأندلس 1492، واتخذوا من جزيرة جربة قاعدة لأعمالهم البحرية مقابل تقديم خمس الغنائم البحرية للسلطان الحفصي أما تسمية "بربروس" فتعني "أصحاب اللَحى الحمراء". أنظر:

- خير الدين بربروس، **مذكرات**، ترجمة محمد دراج، دار الأصالة، الجزائر، 2010، ص 21-22.

(14)- راجع استغاثة أهل الأندلس بالسلطان العثماني:- جمال قنان، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830**، طبعة خاصة، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009، ص47-48.

(15)– غطاس، "ظهور الدولة..."، ص 20-21.

(16)- كان هناك انقسام في الرأي بين حاكم المدينة سالم التومي، وبين العلماء والأعيان حول تقديم الجزية والفدية للاسبان، فقد كان الحاكم يميل إلى الهدنة والخضوع مقابل البقاء في الحكم، بينما كان العلماء والأعيان يميلون إلى الثورة. وقد جاءت الفرصة بالتمرد على المعاهدة بموت الملك فرديناند في 23 جانفي 1516م، الذي استبشر به خيرا سكان مدينة الجزائر، فبعثوا برسالة دعوة إلى القرصان عروج الذي بدأ اسمه يشتهر في جيجل، الذي قبل الدعوة وتوجه إلى مدينة الجزائر. وبعد وصوله إليها انقلب مجلس المدينة على الحاكم سالم التومي، الذي قُتل بتهمة الخيانة الرضا بالولاء للنصارى، وهكذا تمهد الطريق لعروج ليحكم المدينة. وبذلك اندثر حكم الثعالبة التي كانت تملك أربعة آلاف فارس (4000)، وأربعين ألف مقاتل (40.000)، وقد تفرق ذلك الجيش في ربوع متيجة، ولم يبق لهذه العائلة ذكر إلا من خلال ضريح الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي، الموجود بالمدينة مثلما لم يبق أثر لعائلة بني مزغنى، التي أسست المدينة. أنظر:

- بدر الدين بلقاضي ومصطفى بلحموش، **تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفوكس**، منشورات موفم، الجزائر، 2007، ص 19.

(17)- خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 113و 74.

(18)- ويشمل إقليم دار السلطان في الأصل مدينة الجزائر، المتيجة، ومنطقة الساحل، من تنس غربا إلى دلس شرقا.وبذلك تشكل جزء الإيالة الخاضع إلى سلطة الداي مباشرة، وهذا الإقليم هو المقاطعة المركزية والتي خضعت لتنظيم محكم.

(19)- قنان، المرجع السابق، ص، 15.

(20)- Cresti, Op.cit, p, 63.